الفكر الإصلاحي للإمام موسى الكاظم (عليه السلام)
دراسة مقارنة بين العلماء العرب والمستشرقين

د. هدى ناجي البديري
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

(مُلَخَّصُ البَحث)

الحمدلله ربّ العالمين ، والصلاةُ والسلام على أشرف الخلق أجمعين ، النبي الخاتم الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين، وبعد ...

قال الله تعالى في محكم كتابه : **(الذين ينفقون في السّراء والضّراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)** [١].

هوكوكبٌ دري تألق في سماء الإمامة وشمسٌ من شموس المعرفة في هذا العالم، لا تزالُ أنوارهُ تشعّ بهاء وجمالا في هذا الوجود ، إنّه الإمام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) أحد أعلام الدين وحجة الله على العالمين وسابع أئمة المسلمين .

تصدر أئمة أهل البيت قائمة المصلحين في العالم ، فكان الإمام الكاظم (عليه السلام) معنيا بإصلاح شأن الناس حتى أعدائه ، بالطريقة التي تمثل السلام والهدوء إذ لم يكن متشنجا مع الذين يحاولون الحطّ من شأنه .

فمهما تحلى الباحث باطلاع واسع في علم النفس ومهما أوتي من براعة في علم الاجتماع، ومهما بلغ من التفوق في كل العلوم فلا يستطيع أن يلمّ إلماما شاملا بواقع أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بما لهم من ظواهر ذاتية وإبداعات فرديّة ، والواقع أنّ ما أثر عنهم من صفات مميزة ونزعات فذة في سلوكهم الشخصي والإصلاحي يجعلهم في أعلى مراتب الانسانيّة[٢].

عنوان بحثي هو**(الفكر الإصلاحي للإمام موسى الكاظم (عليه السلام) دراسة مقارنة بين العلماء العرب والمستشرقين).**

وقد ركز البحث على الجانب الإصلاحي عند الإمام (عليه السلام) لبروز هذه السمة لديه وهي من علامات الرقي الأخلاقي والسمو النفسي، وتناول الحديث فيه عن: منهج الإصلاح في فكر الإمام عند العلماء العرب وعند المستشرقين بحسب ما توافر لدي من مصادر.

تخللــه موضــوعات فرعيّــة تنضــوي تحــت موضــوع الإصــلاح منهــا العفــو والإحســان الى الناس وقول الحق.

ونحـن فـي أشـد الحاجـة الـى أن ننهـل مـن ينبـوع أهـل البيـت بعامّـة، والإمـام الكـاظم (عليــه الســلام) بخاصّــة فــي هــذا المجــال المهــم لأنّ الاخــلاق والإصــلاح الاجتمــاعي فلسفة ساميّة ينبغي أن يتميز بها السلوك إذا ما أريد له الرقي والتعايش بسلام.

مـا أحوجنـا اليـوم قبـل غـد أن نشـرب مـن نهـج الإمـام (عليـه السـلام) الإصـلاحي، ليكـون لنـا دواء مـن أمراضـنا فنمـرره فـي قلوبنـا وعقولنـا وأن نأكـل دائمـا علـى مائـدة **(اذهبـوا فـأنتم الطلقـاء)** أو **(رفقـا بالرعيـة فـإنّ النـاس صـنفان إمّـا أخ لـك فـي الـدين أو نظير لك في الخلق)**[٣].

والإصــلاح فــي المعجــم يعنــي : المعالجــة وإصــلاح الفاســد وإصــلاح الحــال[٤] وفــي كتــب التفاســير بمعنــى التربيــة والتعلــيم وخــلاف الإفســاد والهــدى والصــلاح والبــر والتقوى[٥].

وعنـدما نبحـث عـن لفـظ (الإصـلاح) فـي القـران الكـريم نجـده يـرد هـو واشـتقاقاته فـي (إحـدى وخمسـين) آيـة ، كقولـه تعـالى :**(إن أريـد إلاّ الإصـلاح مـا اسـتطعت)** [٦] وقولـه جـلّ وعـلا وهـو يـأبى بعدلـه الإلهـي المسـاواة بـين الصـالح والمفسـد **(أم نجعـل الـذين آمنـوا وعملـوا الصـالحات كالمفسـدين فـي الأرض أم نجعـل المتقـين كالفجـار)** [٧]،وقولـه سـبحانه **(إنّمـا نحـنُ مصـلحون)**[٨] و **(الله يعلـمُ المفسـدَ مـن المصـلح)**[٩] و**(فمـن اتقـى وأصـلح فـلا خـوفٌ علـيهم ولا هـم يحزنـون)**[١٠] . وأكـدت السـنة النبويّـة ذلك بالقول **(إنّما بعثتُ لأتممَ صالح الأخلاق)** [١١].

ولعـلّ أبـرز الأسـباب التـي دعـت الإمـام الـى تبنـي منهجـه الإصـلاحي ومواجهـة هـذا السيل الجارف من الإنهيارات والتراجعات الروحيّة والثقافيّة والسياسيّة هي[١٢] :

١. شيوع الانحرافات الفكريّة ومظاهر التحريف الخطير في الرسالة الإسلاميّة .

٢. انتشار مسألة الزندقة والإلحاد والتشكيك في المعتقدات .

٣. نشط مسألة الغلووتأليه أئمة أهل البيت (عليهم السلام) .

٤. انتشار عقيدة التناسخ .

٥. بروز فكرة الجبر والتفويض .

٦. ظهور فكرة التجسيم والتشبيه .

فنشـط الإمـام موسـى (عليـه السـلام) لكـبح جمـاح هـذا الخـط لـيحفظ للرسـالة بريقهـا وللدين نظارته .

واتخذ الإمام (عليه السلام) أساليب عديدة للإصلاح والموعظة ومعالجة الانهيار الأخلاقي الذي أخذ ينتشر ويستحكم في معظم الحواضر الإسلامية التي كان الإمام (عليه السلام) يتواجد فيها. ومن أكثر الطرق الإصلاحية التي اتبعها الإمام الكاظم (عليه السلام) هي [١٣] :

١. طريقة المناظرة ...

كانت طريقة المناظرة من أهم الطرائق التربويّة في عصر الإمام ، لما لها من أثر في شحذ الأذهن وتقوية الحجة والتمرن على سرعة التعبير.

وروي أنّ الإمام قد ناظر قوما زعموا أنّ الله تبارك وتعالى ينزل الى السماء الدنيا كذلك سئل الإمام الكاظم (عليه السلام) عن معنى قوله (**الرحمن على العرش استوى**) [١٤].

أمّا مناظراته مع الرشيد فكانت مفاخرة صريحة ومباهلة جريئة افسدت عليه مشاعر التعالي ولذة المباهاة من توهم قدرته على خداع السامعين والمشاهدين بأنّه أقرب الناس الى رسول الله (صلى الله عليه واله) وأنّه الأحق بالخلافة وصار يستغل كل لقاء له مع الإمام للحديث والبحث في مسألة القرابة من رسول الله (صلى الله عليه واله) .

٢. طريقة الموعظة ...

إنّ طريقة الموعظة لها أهمية عظيمة في التربية الإسلامية إذ تقوم بتنشئة المسلم العابد الصالح، فالموعظة من الطرائق التربويّة الرائعة لأنّها تؤدي الى كمال الإنسان وتنمية خلقه لذا ينبغي أن يتمثلها المعلم والمتعلم ومواعظ الإمام الكاظم (عليه السلام)لاتعد ولاتحصى وكان لها دور ملموس في تربية أصحابه ومخالفيه .

٣. الاقتداء ...

وهي منهج مهم من وسائل التربيّة لأنّ الناس يتأثرون بمن يقتدون به ، وغالبا ما يكون من الطبقات العليا في المجتمع كالرؤساء والقادة وعلماء الدين .

٤. المراسلة ...

كانت لأهل البيت (عليهم السلام) مع مواليهم ومخالفيهم الكثير من الارشادات والنصائح والأوامر والمواعظ وقد حققت نتائج ملحوظة .

وعن علي بن سويد قال : سألته عن الضعفاء فكتب إليّ (الضعيف مَن لم ترفع إليه حجة ولم يعرف الاختلاف فإذا عرف الاختلاف فليس بمستضعف) .

٥. الحوار...

الحوار من الوسائل المعمول بها في المنهج الإصلاحي ، فيه يطرح الإنسان مبتنياته الفكريّة والعاطفيّة والسلوكيّة ويردُّ على شبهات المحاورين .

٦. طريقة الإملاء ...

إنّ تدوين وتقييد العلوم قد بدأ في عهد مبكر من صدر الإسلام فقد سجّل بعض القرّاء والعلماء أحاديث رسول الله في الأحكام الفقهيّة ، وقد اعتمد هذه الطريقة الإمام الصادق (عليه السلام) حتىُ سميت بعض الكتب (بالأمالي).

وقد تعددت مصادر التراث التي تناولت الحضارة الإسلامية قديما وحديثا ، واختصّ كلٌ منها بدراسة جانب معين من هذه الحضارة ، وجاء المحدثون وقرأوا هذا التراث وقدموا لنا رؤى متباينة كل حسب فهمه لهذا التراث .

المستشرقون ...

من بين هذه الدراسات التي تناولت حياة الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) كانت الدراسات الاستشراقية، إذ أولى المستشرقون اهتماماً منقطع النظير بتأريخنا وحضارتنا ولأسباب شتى كان عدد من المستشرقين قد اهتّم بدراسة تأريخ أهل البيت (عليهم السلام) عموما والتشيع على وجه الخصوص [١٥].

وتعدُّ الدراسات الاستشراقية التي تناولت حياة الأئمة (عليهم السلام) كثيرة ، وقد تباينت طبيعة هذا التناول تبعا لرؤية كل كاتب وثقافته المستمدة في أكثرها من التراث العربي الحافل ، بغضّ النظر عن طبيعة تلك الكتابة سواء أكانت مدحا أم كتابة يشوبها بعض سوء الفهم نتيجة عدم استيعاب أحداث المرحلة بصورة تامّة .

وقد كانت ثمة مسألة تتكرر في دراسات أغلب المستشرقين تتمثل في الحديث عن منزلة أهل البيت الكبيرة في نفوس من عاصرهم ، وقصة المظلومية التي تعرض لها الأئمة الأطهار ومنهم الإمام الكاظم (عليه السلام) إيمانا منهم بأنّ تأثير أهل البيت (عليهم السلام) قد تعدى حدود الشرق ليصلَ إلى علماء الغرب متمثلا بالدراسات الاستشراقية التي تركها هؤلاء ، والتي امتازت بعضها بالموضوعية والتجرد [١٦].

وفضلاً عن العلماء العرب فقد تطرق البحث الى دراسة فكر الإمام الإصلاحي عند المستشرقين، وقد انبرى عددٌ منهم الى دراسة تأريخ أهل البيت (عليهم السلام)وكان في مقدمتهم المستشرق (دوايت .م . دونلدسن) الذي يعدّ في مقدمة من اهتم بهذا المجال ومن أهم مؤلفاته (عقيدة الشيعة) والذي ترجم إلى العربيّة من شخص أشار

الى نفسه ع. م، و طبع الطبعة الأولى في القاهرة سنة ١٩٤٦م، والطبعة الثانية في بيروت عام ١٩٩٠، والمستشرق جرهارد صاحب كتاب (سطوع نجم الشيعة) والمستشرق جيفري في كتابه (أصول التشيع الإسلامي وتطوره المبكر) [١٧].

لقد صور المستشرق دونالدسن أنّ ولادة الإمام تزامنت مع الكفاح المرير ونلاحظ أنّ هذا المستشرق يشير إلى مسألة طول مدة إمامة الإمام الكاظم (عليه السلام) وإمامة الإمام الكاظم في نظر دونالدسن مركز خطير ترمقه العيون [١٨].

وقد وظّف الإمام (عليه السلام) حلمه الذي أصبح مضربا للمثل في إصلاح النفوس، ليرسي قاعدة هامّة ، وممن تأثر بالإمام الكاظم (عليه السلام) ولمع في حواضر المجتمع الإسلامي أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن المروزي الأصل البغدادي السكن والذي أصبح من الوقّاء والزهّاد بعد أن كان من المعازف والملاهي حيث تاب على يدي الإمام الكاظم (عليه السلام)[١٩].

الإمام الكاظم (عليه السلام) في سطور ...

هو العبد الصالح كاظم الغيظ ابن زبدة الصالحين ، مشعل الهداية وقطب رحى العلم موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) .

وهو أحد شموع العترة الطاهرة ، ومن ركائز الإسلام العليا ، قد أدى رسالة ربه بإمانة وإخلاص ، وبالغ في إرشاد أمة جده (ﷺ)، وتحمل في سبيل ذلك أقسى ألوان المحن والخطوب ، فأودعه الرشيد في ظلمات سجونه لأنّه لم يجاره أو يصانعه ، بل قاومه وازدرى بسلطانه وصارحه بجوره واختلاسه لمركز الخلافة الإسلامية ، وبذلك كان (عليه السلام) من عمالقة المجاهدين في سبيل الله ، الناصحين لعباده [٢٠].

وقد استمر الإمام الكاظم على منهجية والده الإمام الصادق (عليه السلام) وجده الإمام الباقر (عليه السلام) في التخطيط الفكري والتوعية العقائديّة ومواجهة الاتجاهات المعاكسة المنحرفة والنحل الدينية ، فهو القوي الذي لا تأخذه في الله لومة لائم والناقد بالأدلة العلمية الدامغة والبراهين الواضحة الدقيقة والحجج الثابتة عندما يواجه تلك التيارات [٢١].

وكما كانت عناية الإمام فيما تلقينا من تراثه المأثور قد بلغت مبلغا كبيرا في معالجة شؤون الفكر الديني على صعيد علوم الكلام والتفسير والفقه والفرائض ،

كانت عنايته بقضايا السلوك الإنساني والتكافل الاجتماعي والروابط الأخلاقية التي ترصّ الصفوف وتحكم العلائق بين الناس قد بلغت مثل ذلك المبلغ كثرة ووفرة .

وروى عنه الرواة في هذه الموضوعات من التعليمات والتوجيهات والتنبيهات ما لا يسعنا استيعابه وإثباته ، وجاء في بعضها: **(من أتاه المؤمن في حاجة فإنّما هي رحمة من الله عز وجل ساقها إليه، فإنّ قبل ذلك فقد وصله بولايتنا ، وهو موصول بولاية الله عز وجل ، وإنّ رده عن حاجته وهو يقدر على قضائها سلط الله عليه شجاعا من نار ينهشه في قبره الى يوم القيامة)** [٢٢].

ثم لم يكتف الإمام (عليه السلام) بالتوجيهات العامّة التي خاطب بها جمهور المسلمين في حثّهم على ضرورة التآخي والتماسك والتراحم والتعاطف ، والسعي في قضاء الحوائج ، والالتزام بصدق الحديث وإداء الإمانة ، حتى خصّ شيعته بزيادة في الإخلاص والتمحيص ، ليكونوا على مستوى إدعائهم الانتساب لأهل البيت (عليهم السلام) ونهجهم في مطابقة الأفعال للأقوال ، وفي حسن التصرف وسلامة النية ومحاسبة النفس ، فقال عنهم ذات يوم :

(لو تمحصتهم لما خلص من الألف واحد ، ولو غربلتهم لم يبق منهم إلاّ ما كان لي ، إنّهم طال ما أتكوا على الأرائك ، فقالوا : نحن شيعة علي ، إنّما شيعة علي من صدق قوله فعله)[٢٣].

وقد اهتم الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) بشؤون المسلمين ، وكانت رغبته واضحة في قضاء حوائج الناس ، وهذه مجموعة من الأسس التي تميز بها الإمام الكاظم (عليه السلام) لإشاعة الوحدة بين طوائف المجتمع الإسلامي .

العفو والاصلاح ...

وحثّ (عليه السلام) أصحابه على العفو والإحسان لمن أساء اليهم ، كما شجعهم على الإصلاح بين الناس ، وبين لهم عاقبة المحسنين والمصلحين ، وما لهم من الأجر عند الله تعالى ، قال : **(ينادي منادٍ يوم القيامة ألا من كان له أجر على الله فليقم ، فلا يقوم إلاّ من عفا وأصلح)** [٢٤].

إحسانه الى الناس ...

كان الإمام (عليه السلام) بارا بالمسلمين ، محسنا لهم ، فما قصده أحد في حاجة إلّا قام بقضائها ، فلا ينصرف منه ، إلاّ وهو ناعم الفكر ، مثلوج القلب ، وكان (عليه السلام) يرى أنّ إدخال الغبطة على الناس ، وقضاء حوائجهم من أهم أفعال الخير ، فلذا لم يتوانَ قط في إجابة المضطر ، ورفع الظلم عن المظلوم ،

وقد أباح لعلي بن يقطين الدخول في حكومة هارون ، وجعل كفارة عمل السلطان الإحسان الى الإخوان مبررا له ، وقد فزع إليه جماعة من المنكوبين فكشف آلامهم، وملأ قلوبهم رجاء أو رحمة [٢٥].

قول الحق ...

وأمر (عليه السلام) أصحابه بقول الحق وإظهاره ، وتجنب الباطل ، قال (عليه السلام): **(اتق الله وقل الحق ، وإن كان فيه هلاكك فإنّ فيه نجاتك ، ودع الباطل وإن كان فيه نجاتك ، فإنّ فيه هلاكك)**[٢٦] .

وحثّهم (عليه السلام) على التودد والتآلف وزيارة بعضهم بعضا ، لأنّها توجب المحبة ، وشيوع المودة ، فضلا عمّا لها من الأجر العظيم عند الله ، قال (عليه السلام) : **(من زار أخاه المؤمن لله تعالى لا لغيره يطلب به ثواب الله تعالى ، وكل الله تعالى به سبعين ألف ملك من حين يخرج من منزله حتى يعود إليه ينادونه ألا طبت وطابت لك الجنة تبؤات من الجنة منزلا)** [٢٧].

الورع ...

كان الإمام (عليه السلام) كثيرا ما يوصي أصحابه بالورع عن محارم الله ، قال: (عليه السلام) : **(كثيرا ما كنت اسمع أبي يقول : ليس من شيعتنا من لا تتحدث المخدرات بورعه في خدورهن)** [٢٨].

السخاء وحسن الخلق ...

وحثَّ (عليه السلام) أصحابه على التحلي بالسخاء وحسن الخلق ،قال (عليه السلام) : **(السخي الحسن الخلق في كنف الله تعالى لا يتخلى الله تعالى منه حتى يدخله الجنة ، وما بعث الله نبيا ولا وصيا إلاّ سخيا ، وما زال أبي يوصيني بالسخاء حتى مضى)** [٢٩] .

قول الخير...

وأوصى (عليه السلام) أصحابه بقول الخير ، وإسداء المعروف إلى الناس ، فقد قال للفضل بن يونس : **(ابلغ خيرا ، وقُل خيرا ، ولا تكن إمعة)** [٣٠] .

قال : ما الإمعة ؟ .

قال (عليه السلام): **(لا تقل أنا مع الناس ، وأنا كواحد من الناس ، إنّ رسول الله (ﷺ) : (يأيُّها الناس ، إنّما هما نجدان ، نجد خير ، ونجد شر فلا يكن نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير)** [٣١].

ارشاده وتوجيهاته ...

إنّ إرشاد الناس الى الحق وهدايتهم إلى الصواب من أهم الأمور الإصلاحيّة التي كان الإمام الكاظم (عليه السلام) يُعنى بها ، فقد قام بدور مهم في إنقاذ جماعة ممن غرتهم الدنيا وجرفتهم بتياراتها ، وببركة إرشاده ووعظه لهم تركوا ما هم فيه من الغي والضلال ، وصاروا من عيون الناس .

وقد ذكر المؤرخون بوادر كثيرة له في هذا المجال ، فقد رووا قصته مع بشر الحافي ، فقد كان في بداية أمره فيما يقول الرواة يتعاطى الشراب ، ويقضي أيامه ولياليه في المجون والدعارة [٣٢].

فاجتاز الإمام (عليه السلام) على داره ببغداد فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تعلو من داره ، وخرجت منها جارية وبيدها قمامة ، فرمت بها في الطريق.

فالتفت الإمام اليها قائلا : يا جارية ، صاحب هذه الدار حر أم عبد ؟ .

ـ فقالت : حرّ .

ـ فقال (عليه السلام) : صدقت ، لو كان عبدا لخاف من مولاه .

ودخلت الجارية الدار ، وكان بشر على مائدة السكر ، فقال لها : ما أبطأك ؟ .

فنقلت له ما دار بينها وبين الإمام (عليه السلام) ، فخرج بشرومرّ مسرعا حتى لحق بالإمام، فتاب على يده ، واعتذر منه وبكى [٣٣].

وبعد ذلك أخذ في تهذيب نفسه ، واتّصل بالله عن معرفة وإيمان حتى فاقّ أهل عصره في الورع والزهد ، وقال فيه إبراهيم الحربي : (ما اخرجت بغداد أتمّ عقلا ولا أحفظ للسانه ، من بشر بن الحارث ، كان في كل شعرة منه عقل) .

وتجرد عن الدنيا ، وانقطع الى الله حتى صار من أقطاب العارفين ، كل ذلك ببركة وعظ الإمام وإرشاده له .

فقد عني الإمام بإرشاد المسلمين الى فعل التقوى وعمل الخير [٣٤] .

واتسم عصر الإمام (عليه السلام) بموجات رهيبة من النزعات الشعوبيّة والعنصريّة والنحل الدينية ، والاتجاهات العقائديّة التي لاتمت الى الإسلام بصلة ، ولاتلتقي معه بطريق .

وقد اتجهت تلك الطاقات العلميّة التي تفجرت في ذلك العصر إلى الجانب العقائدي من واقع الحياة ، فحدثت المذاهب الإسلاميّة والفرق الدينيّة ، وتشعبت الأمة إلى طوائف وقع فيما بينها من النزاع والمخاصمات والجدال الشيء الكثير ،

فكانت النوادي تعج بالمعارك الدامية والصراع العنيف ، خصوصا فيما يتعلق بإثبات الخالق وصفاته الايجابية والسلبية ، والقضاء والقدر ، ومسألة خلق القرأن ، وكان من أبرز المتصارعين في هذه الساحة هم علماء الكلام والمتكلمون [٣٥].

وقد أُلفت كثير من الكتب في هذا الموضوع ، وهي حافلة بصور كثيرة من تلك المشاجرات والخصومات .

وكانت من أخطر الدعوات المحمومة التي اندلعت في ذلك العصر هي الدعوة الإلحادية ، فقد بشّر بها الدخلاء الذين يحملون في قرارة نفوسهم الحقد على الإسلام والمسلمين ، وقد ثقل عليهم امتداد حكم الإسلام ، وانتشار سلطانه في الأرض ، فرأوا أنّ لاطول لهم الى مقابلته من طريق الحرب والقوة ، فاخذوا يبثون سمومهم في نفوس الناشئة الإسلامية ، ويلقون الشبه والأوهام في نفوس المسلمين ، حتى استجاب لهم جمع من المخدوعين والمغرورين[٣٦].

وكان موقف الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وكبار القادة ، ورجال الفكر من أصحابه، هو التصدي لنقد تلك الأفكار الوافدة بالأدلة العلمية الرصينة ، وبيان فسادها ، وبعدها عن منطق الواقع ، وكانت احتجاجاتهم تحمل طابع الإخلاص للحق والحرص على صالح المسلمين ، وقد اعترف قسم كبير من حملة تلك المبادئ بخطئهم ، وفساد إتجاههم ،فرجعوا إلى طريق الحق والصواب [٣٧].

وأبرز الحركات التي تصدى لها الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) هي :

الشعوبية ...

والشعوبي هو الذي يحطُّ من قيمة العرب وكرامتهم ، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم ، ونشأت هذه الحركة الهدامة في عهد الخليفة الثاني، حتى ذهب ضحيتها، فقد اغتاله أبو لؤلؤة نتيجة للتآمر بين تلك القوى الحاقدة عليه[٣٨] .

وتطورت الحركة الشعوبية تطورا هائلا أيام الحكم الأموي والعباسي، فقد حدثت النعرات البغيضة بين المسلمين ، وأخذ العرب يفخرون على بقية القوميات الأخرى، ويشيدون بذكر مآثرهم [٣٩].

أمّا شعوب الأمة الإسلامية الأخرى، فغالوا مثل مغالاة العرب ، وراحوا يحطون من شأنهم، ويذكرون مساوئهم، كما راحوا في الوقت نفسه يذكرون عظمة السلطان عند الرومان، وحكمة الهند، ومنطق اليونان وفلسفتهم، وصناعة الصين وفنونها، وترف فارس وحضارتها، والعرب أقل الأمم شانا في ذلك، فليس لهم فخر يذكر، ولا مجد يباهى.

وأمّا تمشدقهم وفخرهم بالإسلام فليس هو دين العرب وحدهم، بل هو دين الناس جميعا، والإسلام نفسه قد حارب النزعات الجاهلية، وقبر أفكارها، وحطم امتيازاتها، وعدّ المسلمين جميعا صفا واحدا، لا امتياز لأحد منهم على أحد، وجعل المقياس في التفوق والفضل التقوى والعمل الصالح، **قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)**[٤٠].

وقد ألفت كتب كثيرة في ذكر مثالبهم والازدراء بهم، فقد كتب في ذلك أبو عبيد معمر بن المثنى عدة كتب منها: لصوص العرب، وأدعياء العرب، وفضائل الفرس، وألف سعيد بن حميد بن البختكان كتاب (انتصاف العجم من العرب) وكتاب (فضل العجم على العرب وافتخارها)[٤١].

لقد شاعت الحزازات، وانتشر التنافر بين المسلمين في ذلك العصر، فكان شعراء الموالي الذين أصلهم من فارس يعتزون بقوميتهم، ويبالغون في الحطّ من كرامة العرب [٤٢].

وبلغت الحركة الشعوبية أوجها في أيام المهدي ، وبلغت الذروة في عهد هارون، وذلك لنفوذ البرامكة وقبضهم على أزمّة الدولة .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ هذه النزعة قد أولدت العداء بين المسلمين وفرقت صفوفهم،وانطلق شعراء ذلك العصر والأدباء من العرب أو من الموالي يهجو بعضهم بعضا، ويسبّ كل فريق منهم الفريق الآخر .

وتميز موقف الإسلام بالشدة والصرامة لكلّ نزعة فاسدة توجب تصديع شمل المسلمين ، وإشاعة التنافر فيما بينهم ، فقد أعلن الإسلام منذ بزوغ نوره أنّ المسلمين يدٌ واحدة ، وأنّ رابطة الدين أقوى رابطة النسب [٤٣].

وقد شجب النبي (ﷺ) جميع النعرات الشعوبيّة والقوميّة ، فقد هزأ بعض المنافقين من أذان الحبشي لأنّه لم يكن يستطيع النطق بالشين ، فكان يبدلها سينا ، وكان يقول : أسهد أن لااله الا الله ، فانطلق بلال إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبره بسخرية القوم واستهزائهم به ، فساء ذلك رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وانبرى يقول : إنّ سين بلال شين عند الله .

وقال (ﷺ) منددا بهؤلاء المنافقين : إنّ سين بلال خير من شينكم [٤٤].

وقد شجب (ﷺ) جميع ألوان التفرقة بين المسلمين ، فقال (ﷺ) : **(لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى)** [٤٥].

الإلحاد والزندقة ...

وظهرت الحركة الإلحادية في العصر العباسي الأوّل ، وانتشرت فيه المبادئ الشاذة الداعية إلى الفوضى والتفسخ ، وقد أعتنقها جمع من البسطاء الذين تلونهم الدعاية كيفما شاءت ، فانطلقوا بغير وعي ولا هدى معهم ، ولكن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) مع أعلام تلاميذهم من قادة الفكر الإسلامي قد تصدوا إلى مناهضة ذلك الغزو العقائدي ، وتزييف الأفكار الوافدة ، ورد شبهات الملحدين ، وإنقاذ المسلمين منها .

والإلحاد ظاهرة نفسيّة من أخطر الأمراض الاجتماعيّة ، وأشدها فتكا بحضارة الإنسان وتقدمه ، وهو يدعو الى إنكار الخالق العظيم ، وجحود البعث ، وتكذيب الرسل ، والاعتقاد بان الإنسان لا يخضع لقوة أخرى ، وإنّ حياته وجميع شؤونه إنّما هي من تدبيره وصنعه [٤٦] .

إنّ الانسان إذا اصيب بهذا الداء الخطير ، فإنّ الحواجز النفسيّة التي تصده عن ارتكاب الأثم والمنكر تنهار انهيارا كليا ، وتنمحي عن النفس جميع النزعات الخيرة ويسدر الإنسان في تيارات قاتمة من الظلمة والتمرد ، وإلى ذلك يشير الذكر الحكيم بقوله :(**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات**) [٤٧].

وتميز رد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) على الملحدين بالمنطق العلمي والأدلة الحاسمة التي تبثت أصالة العقيدة الإسلامية بجميع مناحي تشريعاتها ، وزيف أضاليل الملحدين ، وبطلان معتقداتهم ، وكان تأثير تلك الاحتجاجات في نفوسهم أقوى من جميع الوسائل التي استعملتها الحكومات المحلية لقمعهم ، فقد التجأت بعد ان اعوزها المنطق الى قوة الحديد والنار، والزج في السجون الى قهرهم وإبادتهم [٤٨].

وكان المخطط الرهيب الذي اتخذته الحكومة العباسيّة لتصفية الشيعة وسائر القوى المعارضة لهم يحتوي على الآتي :

أوّلا : إحداث المذاهب الإسلاميّة ، وفصم عرى الوحدة بين المسلمين ، وإشغالهم بالناحيّة العقائديّة من حياتهم عن النظر في أي شأن من الشؤون السياسيّة ، وقد عجت النوادي في بغداد والكوفة والبصرة والمدينة المنورة وسائر أنحاء العالم الإسلامي بالمناظرات الكلاميّة ، والاحتجاجات الفلسفية ، وكلها تحوم حول الإطار العقائدي في الإسلام ، وقد وجهت الحياة العلميّة في تلك العصور إلى هذه الناحية

الخاصّة ، ولم تتجه الى أي جانب من جوانب الحياة السياسية التي يعيشها المسلمون.

ثانيا ــ عزل أئمة أهل البيت (عليهم السلام) عن القافلة الإسلاميّة ، وفرض الرقابة عليهم ، ومنع الاتصال بهم ، وعدم أخذ معالم الدين منهم [٤٩] .

وقام الإمام الكاظم موسى بن جعفر (عليه السلام) بإسهام متميز في الدفاع عن العقيدة الإسلاميّة ، وإبطال شبه الملحدين ، وزيف أفكارهم ونعرض فيما يأتي لمسألة كلاميّة سئل عنها وهي إبطاله لحركة الله .

جاء في بعض الروايات من طرق العامّة أنّ الله سبحانه ينزل في الثلث الأخير من الليل فينادي في السماء : هل من داعٍ ؟ هل من مستغفرٍ؟ [٥٠].

والمجسمون يحملون هذه الأخبار على ظواهرها من دون تأويل أو نظر في سندها واثبتوا أنّ الله تعالى له جسم وقد عرض ذلك على الإمام (عليه السلام) فبين فساد ذلك.

قال (عليه السلام) : إنّ الله لا ينزل، ولا يحتاج إلى أنّ ينزل ، إنّما منظره في القرب والبعد سواء، لم يبعد منه قريب، ولم يقرب منه بعيد ، ولم يحتج إلى شيء، بل يحتاج إليه وهو ذو الطول لا اله إلّا هو العزيز الحكيم [٥١].

أمّا قول الواصفين : إنّه ينزل تبارك وتعالى فإنّما يقول بذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة، وكل متحرك محتاج الى من يحركه أو يتحرك به ، فمن ظن بالله الظنون فقد هلك.

فاحذروا في صفاته من أن تقفوا له على حدّ تحدونه بنقص أو زيادة ، أو تحريك أو تحرك، أو زوال أو استنزال ، أو نهوض أو قعود ، فإنّ الله جلّ وعزّ عن صفة الواصفين ونعت الناعتين وتوهم المتوهمين ، وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم ، وتلقبك في الساجدين [٥٢].

خاتمة البحث

ـ تصدر أئمة أهل البيت قائمة المصلحين في العالم ، فكان الإمام الكاظم (عليه السلام) معنيا بإصلاح شأن الناس حتى أعدائه ، بالطريقة التي تمثل السلام والهدوء إذ لم يكن متشنجا مع الذين يحاولون الحطّ من شأنه .

ـ ركز البحث على الجانب الإصلاحي عند الإمام (عليه السلام) لبروز هذه السمة لديه وهي من علامات الرقي الأخلاقي والسمو النفسي ، وتناول الحديث فيه

عن : منهج الإصلاح في فكر الإمام عند العلماء العرب وعند المستشرقين بحسب ما توافر لدي من مصادر .

ـ تخلل البحث موضوعات فرعيّة تنضوي تحت موضوع الإصلاح منها العفو والإحسان الى الناس وقول الحق .

ـ ما أحوجنا اليوم قبل غد أن نشرب من نهج الإمام (عليه السلام) الإصلاحي، ليكون لنا دواء من أمراضنا فنمرره في قلوبنا وعقولنا وأن نأكل دائما على مائدة **(اذهبوا فأنتم الطلقاء)** أو **(رفقا بالرعية فإنّ الناس صنفان إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)**.

ـ الإصلاح في المعجم يعني : المعالجة وإصلاح الفاسد وإصلاح الحال ، وفي كتب التفاسير بمعنى التربية والتعليم وخلاف الإفساد والهدى والصلاح والبر والتقوى.

ـ وعندما نبحث عن لفظ (الإصلاح) في القران الكريم نجده يرد هو واشتقاقاته في (إحدى وخمسين) آية ، كقوله تعالى :**(إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت)** و قوله جلّ وعلا وهو يأبى بعدله الإلهي المساواة بين الصالح والمفسد **(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار)**،وقوله سبحانه **(إنّما نحنُ مصلحون)** و **(الله يعلمُ المفسدَ من المصلح)** و**(فمن اتقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون)**. وأكدت السنة النبويّة ذلك بالقول **(إنّما بعثتُ لأتممَ صالح الأخلاق)**.

ـ لعلّ أبرزالأسباب التي دعت الإمام الى تبني منهجه الإصلاحي ومواجهة هذا السيل الجارف من الإنهيارات والتراجعات الروحيّة والثقافيّة والسياسيّة هي:

١. شيوع الانحرافات الفكريّة ومظاهر التحريف الخطير في الرسالة الإسلاميّة .

٢. انتشار مسألة الزندقة والإلحاد والتشكيك في المعتقدات .

٣. نشط مسألة الغلووتأليه أئمة أهل البيت (عليهم السلام) .

٤. انتشار عقيدة التناسخ .

٥. بروز فكرة الجبر والتفويض وظهور فكرة التجسيم والتشبيه .

الهوامش

(١) آل عمران ١٣٤ .

(٢) بحث الفكر التربوي للإمام موسى بن جعفرالكاظم (عليه السلام) للدكتورة ابتسام سعدون النوري ٢٩٩/١ وهومطبوع ضمن وقائع المؤتمر الثالث الدولي المُقام في العتبة الكاظمية المقدسة وينظر بحث قبسات من نور الإمام الكاظم (عليه السلام) للباحث عبد الحفيظ البناني ١/ ٥٩٥ وهو منشور في الوقائع نفسها .

(٣) بحث الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة في الجانب التربوي والأخلاقي والإصلاحي للدكتور تحسين فاضل عباس ٨٦/١ .
(٤) ينظر المعجم الوسيط ٥٤/١ و٩٣ و١٠٥ .
(٥) ينظر البحر المحيط ٥٥٩/١ ، ١٧٠/٢ ، والتعريفات للجرجاني ص١٣١ حيث قال : الصالح : ((هو الخالص من كل فساد)) .
(٦) هود ٨٨ .
(٧) ص ٢٨ .
(٨) البقرة ١١ .
(٩) البقرة ٢٢٠ .
(١٠) الأعراف ٣٥ .
(١١) قال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٨٠/٨ ،١٦٧٤ ، مالك قد بلغه أنّ رسول الله (ﷺ) قال : بعثتُ لأتمم حسن الأخلاق ، وهذا حديث مسند صحيح عن النبي (ﷺ) حدثناه سعيد بن نصر قال حدثني قاسم بن أصبغ قال حدثني إسماعيل بن اسحاق ... عن أبي هريرة أنّ رسول الله (ﷺ) قال : إنّما بعثت لأتمم صالح الأخلاق ، وينظر المستدرك على الصحيحين ٢/ ٦٧٠.
(١٢) ينظر بحث قبسات من نور الإمام الكاظم (عليه السلام) للباحث عبد الحفيظ البناني ١/ ٥٩٥ وهو منشور في الوقائع نفسها .
(١٣) ينظر بحث الفكر التربوي لدى الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) للدكتور علي محمد العبيدي ص ٣٣/٣ .
(١٤) طه ٥ .
(١٥) ينظر بحث مشهد الكاظمين (عليهما السلام) رؤية استشراقية دونلسن انموذجا ١٥١/١ .
(١٦) ينظر بحث الإمام الكاظم (عليه السلام) في كتابات المستشرقين للدكتور حسين لفته حافظ ١/ ٤٦٩ .
(١٧) ينظركتاب التشيع والاستشراق ، عبد الجبار ناجي ص٤٧٨.
(١٨) دونالسن : مستشرق له اهتمام في دراسة الدين الإسلامي عموما والتشيع على وجه الخصوص ، زار البلاد الشيعية واستقر فيها ١٦ سنة ، في مدينة مشهد في إيران حينما كان يدرس الدكتوراه حول رسالته عن الأئمة الأثنى عشر ، ينظر معجم أسماء المستشرقين ، يحيى مراد ص٣٤٢ .
(١٩) ينظر بحث مفهوم العبادة عند الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) حادثة (بشر الحافي) أنموذجا ٤٤/١ و حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة وتحليل ١٦٣/١و١٦٤.
(٢٠) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة وتحليل ١/ ١٠٢ .
(٢١) مجلة صدى الرسالة ، بحث بعنوان (في رحاب الإمام الصادق عليه السلام مراجعة للذات الولائية وتركيز للوعي الاسلامي) للمهندس غريبي مراد عبد الملك ، كاتب وباحث جزائري ، ص ٧٣ .
(٢٢) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة وتحليل ١٨/١ .
(٢٣) الإمام الكاظم (عليه السلام) وذراريه في التراث الشعري والتاريخي والفقهي ، تاليف إسماعيل الحاج عبد الرحيم الخفّاف ص ٢٣٣ و٢٣٤ .
(٢٤) الإمامان موسى الكاظم ومحمد الجواد ، سيرة وتاريخ ، تأليف الشيخ محمد حسن آل ياسين ص٨٣ .
(٢٥) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة وتحليل ١٦٦/١ و١٦٧ .

(٢٦) المصدر نفسه ١/ ٢٦٢و٢٦٣.
(٢٧) المصدر نفسه ٢٦٢/١ و٢٦٣ .
(٢٨) المصدر نفسه ٢٥٩/١ .
(٢٩) المصدر نفسه ١/ ٢٦٠ .
(٣٠) المصدر نفسه ١/ ٢٦٠ .
(٣١) المصدر نفسه ٢٦٠/١ و٢٦١ .
(٣٢) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة وتحليل ١٦٣/١ .
(٣٣) المصدر نفسه ١/ ١٦٤ .
(٣٤) المصدر نفسه ١٦٥/١ .
(٣٥) الإمامان موسى الكاظم ومحمد الجواد ، سيرة وتاريخ ص ٨٤ و٨٥ .
(٣٦) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة وتحليل ٢٦١/٢ .
(٣٧) المصدر نفسه ٢/ ١١٣ .
(٣٨) ينظر كتاب الزندقة والزنادقة ص ١١٦ .
(٣٩) المصدر نفسه ٢/ ١١٤ .
(٤٠) الحجرات ١٣.
(٤١) حياة الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) دراسة وتحليل ١١٤/٢ .
(٤٢) المصدر نفسه ٢/ ١١٥ و١١٦ .
(٤٣) المصدر نفسه ١١٨/٢ .
(٤٤) المصدر نفسه ١١٨/٢.
(٤٥) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة وتحليل ٢/ ١١٩ .
(٤٦) ينظر كتاب الزندقة والزنادقة ص ١١٥ و١١٦ .
(٤٧) البقرة ٢٥٧.
(٤٨) حياة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) دراسة وتحليل ١٢٣/٢ .
(٤٩) المصدر نفسه ١٢٧/٢ .
(٥٠) المصدر نفسه ١٤٤/٢ .
(٥١) المصدر نفسه ١٧١/٢ .
(٥٢) المصدر نفسه ٢/ ١٥٢ .

قائمة المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم .
ـ الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار ، للحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البرالقرطبي (ت٤٦٣ هـ)، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأوّلى ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠ م .
ـ الإمامان موسى الكاظم ومحمد الجواد ، سيرة وتاريخ ، تأليف الشيخ محمد حسن آل ياسين ، قسم الثقافة والإعلام في العتبة الكاظمية المقدسة ، ٢٠ رمضان ١٤٣٠ هـ ـ ١٠ / ٩ / ٢٠٠٩م.
ـ الإمام الكاظم وذراريه في التراث الشعري والتاريخي والفقهي ، تاليف إسماعيل الحاج عبد الرحيم الخفاف ، راجعه وحقق نصوصه ، المؤرخ الدكتور حميد مجيد هدو ، قسم الثقافة والأعلام في العتبة الكاظمية المقدسة ، الطبعة الأوّلى ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠ م .

ـــ البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، الطبعة الأوّلى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان ٢٠٠١م .
ـــ التشيع والاستشراق ، تأليف عبد الجبار ناجي ، دار المحجة البيضاء ، المركز الأكاديمي للأبحاث ، الطبعة الأولى ، بيروت ٢٠٠١م .
ـــ التعريفات ، تأليف فريد عصره ووحيد دهره الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ـ لبنان ١٤٠٨ـ ١٩٨٨م .
ـــ حياة الإمام موسى بن جعفر دراسة وتحليل ، تأليف باقر شريف القرشي ، تحقيق مهدي باقر القرشي ،الجزء الأوّل والثاني ، قسم الثقافة والأعلام في العتبة الكاظميّة المقدسة ، الطبعة الثانية، ١٣٩٠ هـ .
ـــ الزندقة والزنادقة ، تأليف عاطف شكري أبو عوض ، دار الفكر ، الناشر دار الفكر ،الأردن ـ عمّان .
ـ عقيدة الشيعة ، تعريب ع . م ، الطبعة الثانية ، مؤسسة المفيد ، بيروت ، ١٩٩٠.
ـــ مختصر بحوث مؤتمر الأكاديمين المنعقد ضمن فعاليات مهرجان ربيع الرسالة الثقافي العالمي السابع ، للمدة من ١٥ ـــ ١٧ ربيع الاول ١٤٣٤ هـ ، مطبعة دار الضياء ـ النجف الأشرف .
ـــ المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ،الطبعة الأوّلى ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠م ،
ـــ معجم أسماء المستشرقين ، تأليف يحيى مراد ، منشورات محمد علي بيضون ، الطبعة الأوّلى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٢٠٠٤ .
ـــ المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم بحاشية المصحف الشريف ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ،الطبعة الثالثة ، الناشر ذوي القربى ،١٣٨٤ هـ .
ـــ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار ،الطبعة الرابعة ، مطبعة باقري ١٣٢٦هـ .
ـــ وقائع المؤتمر السنوي الثالث الدولي تحت شعار الإمام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) مصدر عطاء خالد للانسانية ،الناشر الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة ، الشؤون الفكرية والثقافية ، مطبعة دار المرتضى - بيروت ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م .

المجلات

ـــ صدى الرسالة ، مجلة ثقافية خاصة بذكرى ولادة سيد الكائنات النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تصدر عن قسم الشؤون الفكريّة والثقافيّة في العتبة العباسية المقدسة ـــ الطبعة الأوّلى ، مطبعة دار الضياء - النجف الأشرف ، ربيع الأوّل ١٤٣٤ هـ .